وتضرب فى شعاب الخرافة وأرجاء التاريخ ؛ وشكسبير يراوح فى نظمه بين أشكال الشعر المختلفة ، بين الشعر المرسل والدوبيت والسونيت ، والفقرات المتراوحة طولا ، المتداخلة القوافى ، وقد دعى ضرب من السونيت باسمه لما أكسبه بعبقريته من مرونة ، على حين ظل المتنبى - وهو الشاعر العظيم المتمكن من اللغة والادب المطلع على حقائق الحياة - متمسكا بالشكل الشعرى الوحيد الذى وصل إليه من المتقدمين ، وهو القصيدة المصرعة المطلع الموحدة الوزن والقافية غير الموحدة الفكرة ، فلم يمنح الادب العربى شكلا ولا موضوعا لم يكن من قبله ؛ وعاش المتنبى ومات طامحاً إلى الملك وتضريب الاعناق ، ساخطا على تبريزه فى مضمار الادب الذى كان يحسد عليه ويكاد له من أجله ، ولم يكن شىء من ذلك مما يخطر لشكسبير على بال

وجلى واضح أن هذه الفروق بين الشاعرين العظيمين إنما ترجع إلى العوامل الاجتماعية والسياسية ، التى كانت تحيط بكل منهما وتكون نفسيته وعقليته ، وإلى هذه العوامل ذاتها يرجع التباين الشديد بين أبى نواس وأبى تمام والبحترى وابن العميد وبديع الزمان من جهة ، وبين ملتون وبيرون وشلى وكيتس وجيبون وكارليل وما كولى من جهة أخرى ، وهو تباين يجعل من المحال تشبيه واحد من الفريق الاول بواحد من الفريق الثانى ، فى سيرته فى الحياة أو فلسفته الفكرية أو مذهبه الادبى ، وإن كان من أسهل الأمور استخراج العديد من أوجه الاختلاف والتضاد .

هذا الاختلاف فى البيئتين الجغرافية والظروف التاريخية ، والعوامل الاجتماعية والاقتصادية ، والجبلة والتقاليد والمنازع ، وهذا التباين بين الادبين فى المشرب والاسلوب والموضوع وشخصيات الادباء وسيرهم ، كل ذلك يجعل الموازنة بين الادبين من أمتع الدراسات الأدبية وأحفلها بالدروس والعبر ، وأدعاها إلى استخلاص المبادىء والنظريات الادبية ، وإلى التفطن إلى العوامل المؤثرة فى الآداب ونتائجها ، وقديما قيل : وبضدها تتميز الاشياء . ولو كان الادبان شديدى التشابه وليدى ظروف متقاربة وعوامل مؤثرة متماثلة ، لما كان فى الموازنة بينهما كبير طائل ، ولا كان تتبع ظواهرهما يستحق طويل عناء ، ولأشبها أن يكونا أدبا واحدا مشتركا بين أمتين ، موزعا بين لسانين

**فخرى أبو السعود**

# واجبنا الثقافى

## نحـــو الآداب والفنون

للأستاذ اسماعيل مظهر

قال الأستاذ الكبير لزلى إستيفن فى أول الفصل الثانى من كتابه العظيم « الفكر الانجليزى فى القرن الثامن عشر » ما يلى :

إن الكتب التى هى بمثابة الدعائم الثابتة فى تاريخ الآداب ، إنما تكون من طائفتين : احداهما طائفة الكتب التى تلخص جدل الماضى ، والثانية طائفة الكتب التى تعد جدل المستقبل

والظاهر من كلام هذا الرجل الفذ يتضمن فى مطاويه كثيرا من الحقائق التى ينبغى لنا أن ننعم النظر فيها ، ونطيل التأمل والاستبصار منها ، ذلك بأن آدابنا وفنوننا حتى الآن تفتقر إلى الطائفتين معاً : تحتاج إلى كتب تلخص جدل الماضى ، وتحتاج إلى كتب تعد العدة لجدل المستقبل .

أما الكتب التى تلخص جدل الماضى فلا سبيل اليها إلا بالترجمة والنقل عن اللغات الأخرى ، لنستكمل بها - فى لغتنا العربية المنيفة - الأداة التى تعدنا لجدل المستقبل . وعلى هذا نريد أن ننظر أتسع آدابنا وفنوننا اليوم تلك الكتب التى تتضمن مشاكل الماضى وتعدنا لمشاكل المستقبل ؟

أما الذين هم أميل إلى التفاؤل فيقولون إن ما بين أيدينا من الكتب يكفى لتكوين الأديب الذى يستطيع أن يخلق القضايا العقلية والنظريات التى سوف تكون عدة الجدل فى المستقبل . وعلى النقيض من هؤلاء فئة تذهب إلى عكس ما تذهب اليه الأولى وإن كل من يعرف مقدار التراث الذى خلفته القرون الأولى ، ويجول بفكره جولة يقطع بها تاريخ ستين قرناً من الزمان ليقنعه بعدُ الشقة التى تفصل بين أبناء العرب وبين المراجع التى هى عدة لجدل المستقبل ، بلزوم الاكباب على درس ما يلخص جدل الماضى ، من آثار الآداب والفنون .

* * *

عن لى أن أكتب فى هذا الموضوع ، وأن أخص الرسالة بما أكتب ، إثر سؤال تقدم به إلى صديق من خريجى الأزهر ومن رجال التخصص فيه يريد به أن يعرف المصادر التى يستطيع أن يدرس فيها تاريخ الاسكندر المقدونى وحياته وأعماله ، وقد أراد

أن يكتب رسالة فى تاريخ هذا الرجل وأن يعقد فى الرسالة فصلا يبحث فيه العلاقة التاريخية بين الاسكندر المقدونى وذى القرنين الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم ، وعبثاً ماحاولت أن أستذكر اسم كتاب واحد فى اللغة العربية يمكن أن يتخذ مرجعاً فى مثل هذا الدرس التاريخى الحافل . وهب أنى استطعت أن أقف على اسم كتاب أو كتابين ، على تقدير ذلك ، فهل ذلك يغنيه عن الرجوع إلى المصادر القديمة التى تصدت لذكر الاسكندر المقدونى وفتوحاته ، مثل فلوطرخوس وإفليذوس وإسطرابون وبطليموس ويوستين وكورتيوس وغيرهم وغيرهم ممن لاتحصيهم الذاكرة ، وهل ذلك يغنيه إذا أراد أن يكتب فى أخلاق الاسكندر عن درس المراجع التى كتبت فى فيليبس الثانى أبيه ، والمراجع التى كتبت فى صفات أمه أو لمياس ؟ هل ذلك يغنيه عن أن يعرف أن هنالك قصة أكثر ما فيها خرافى تدعى عند الأعاجم قصة الاسكندر ، يرجح الثقات أنها كتبت فى مصر فى خلال القرن الثالث الميلادى ، وأن هذه القصة ترجمت إلى أكثر اللغات الحية ما عدا العربية بالطبع ، وأن ذيوع هذه القصة كان سببا فيما ذاع عن الاسكندر من الخرافات ، حتى قيل إنه نبى مرة وإنه رسول مرة أخرى ؟

ذكرت للأديب العالم الذى سألنى بجمل هذه الأشياء ، وزدت على ذلك أن درس تاريخ الاسكندر على الصورة التى رسمها يحتاج إلى إلمام بتاريخ الثقافة الهلينية وعلاقتها بغزوات الاسكندر فى الشرق ؛ ثم زدت على ذلك أن هذا الدرس يحتاج إلى إكباب على درس جغرافية حوض البحر المتوسط القديمة والمدن التى قامت حقا فيه وتاريخها وأثرها فى نشر الثقافة الهلينية ، ثم درس جغرافية الشرق القديمة من حدود بحر الروم إلى حدود بلاد الهند ؛ ثم زدت على ذلك أنه من المحتوم على من يريد أن يدرس هذا الدرس وينحو هذا النحو أن يلم بتاريخ الصراع بين فارس وبلاد اليونان قبل ظهور الاسكندر ، وأن يلم بالحالات التى قامت فى بلاد فارس قبيل الفتح المقدونى .

صور لنفسك أيها الباحث بعد ذلك عدد المراجع التى يحتاج اليها باحث كهذا الباحث ليدرس موضوعاً خيل إليه بدءاً أن بحثه هين وأن درسه سهل ، وصور لنفسك بعد ذلك مقدار ما يكون فى بحث مثل هذا يتم بغير مراجع وثيقة فيه من نقص وجهل وتقليل ، ثم صور لنفسك بعد هذا كله مقدار ما يكون فى مؤلف يبرز للناس عفو الخاطر من قدرة على تلخيص جدل الماضى ، ليكون للمستقبل جدله الخاص به ؟ وإنى لأقول آسفاً إن صديق هذا على مقدار ما كان فيه من شغف لبحث هذا الموضوع ، قد اضطر إلى الميل عنه إلى بحث آخر عربى المراجع . بحث من تلكم البحوث التى يعتمد فيها على كتب عربية لم يصقلها النقد ، ولم يقف على إخراجها للناس علماء أتفقوا من وقتهم فى تصحيحها وضبط أعلامها وألفاظها مايجدر بكتب هى فى الواقع مراجع العلم ومآل العالم فى البحث

***

انتهت محاولة ذلك العالم بأن يتحول عن الاسكندر إلى غيره ، لأنه فقد المراجع التى يستطيع أن يتخذها عدة للبحث . ولم ينته الأمر عند ذلك . فقد أرسل إلى أديب من أدباء العراق كتابا يسألنى فيه عن المراجع العربية التى يستطيع أن يخلص منها بشىء من تاريخ تاسيس مدينة الاسكندرية والبحوث التى قام بها الذين عنوا بموضوع هذه المدينة ، ولقد أردت أن ألبى طلب الأديب فبحثت عن المراجع فلم أجد لها أثرا ، ونقبت عن الكتب التى ألمت بشىء من تاريخ العصر المقدونى بمصر فلم أقف لها على وجود وفى النهاية اضطررت أن أكتب اليه بأن يستعين بأحد الذين يجيدون اللغة الانجليزية ويراجع ما كتب مهفى وهوجارت واردن ييفن ، وأنا على علم بأن حظه من التأليف والبحث سوف لا يعدو حظ صديق الأول :

وبعد فان أمثال الباحثين كثيرون ، يريدون أن يلخصوا جدل الماضى ، وأن يعدوا العدة لجدل المستقبل ، ولكن عمادهم مفقود ، وسلاحهم مفلول ، على أن ما طلب الباحثان لأهون بكثير مما يطلب غيرهما ، فالتاريخ على ما فيه من عويص المشكلات يهونه نقل مراجعه إلى العربية ، بقدر مايصعب نقل الآثار الادبية أو الفلسفية ، فلو أن كاتبا أراد أن يكتب فى تاريخ الشعر الاغريق فاى المراجع يقصد وأى الابواب يلج ؟ ولو أن كاتبا آخر أراد أن يستقصى تاريخ المذاهب الفلسفية التى اندست فى ما نظم شعراء الحكمة عند اليونان ، فأى الكتب يستذكر وأى المدونات يدرس ؟

دعك من كل هذا ، وصور لنفسك حال باحث يريد أن يقف على تاريخ العصر الرومانى فى مصر ، أو أن يقف على شىء من تاريخ الكنيسة النصرانية فيها ، أو أن يقيم من تاريخ الصراع بين الهيئتين السياسية والدينية ، هيكلا يخلص منه تاريخ شامل لمصر فى خلال سبعة قرون حكم فيها الرومان أرض النيل ، فأى الكتب العربية يستوحى وأى الابواب يطرق ؟

أما إذا كان هذا مقدار النقص الذى نحسه فى مراجعنا العربية فى مسائل هى أكثر المسائل مساسا بتاريخنا ، فكيف بنا إذا

أراد أحدنا أن يتخذ من الكتب العربية مرجعاً لدرس تاريخ الاستكشاف الجغرافي وعلاقة ذلك بتاريخ الاستعمار الأوربي ، أو التاريخ السياسي لدول أوربا في القرن التاسع عشر ، أو أثر الحروب الأوربية في تكوين التصور السياسي الجديد في القرن العشرين ؟

تشعرنا هذه الحقائق بأن أدبنا ناقص ، وأن علمنا ناقص ، وأننا مصدودون عن البحث بصواد ليس لنا من يد في دفعها ونحن أكثر شعوراً بذلك إذا أردنا أن نؤلف في تاريخ العلم الحديث أو في تاريخ الفكر عامة أو في تاريخ الفنون أو الفلسفة .

* * *

مثل الظرف الذي تجتازه ثقافتنا ، قد اجتازته من قبل أمم عديدة . والعرب في العصر العباسي ، وأوربا في حدود القرون الوسطى ، أقرب ما نمثل به ، على أن احتياجنا إلى الكتب التي ندرس فيها شتى موضوعات الأدب والفن ، ونكمل بها عدتنا في اللغة العربية ، ينبغي أن لا يقتصر على كتب المراجع وحدها بل يجب أن يتعدى إلى الأمهات المؤلفة في مختلف الموضوعات ، ففي تاريخ اليونان مثلا تدعونا الحاجة إلى أن ننقل إلى جانب المؤلفات القديمة مؤلف جورج جروت مثلا ، وفي تاريخ الرومان نضطر إلى نقل كتاب عزن الذي حلل الحياة الرومانية اجتماعياً واقتصادياً وكتاب انحلال القيصرية الرومانية الذي يبحث الأسباب السياسية التي أدت إلى ذلك الانحلال . كذلك ينبغي لنا أن ننقل إلى العربية كل المراجع التي تعالج تاريخ الفكر وثورات العقل وأن نلم بكل ما يتاح لنا الالمام به من المظان التي توسع من أفق العلم بأخبار الأمم وحالاتها وأسباب ارتفاعها وسقوطها

أضف إلى ذلك أن أدبنا تنقصه المعاجم الكثيرة . فهل يمكن لأديب باحث أو عالم متفرغ للعلم أن يستكمل عدة البحث بغير معاجم قريبة التناول سهلة الأسلوب ؟ وإذا أردت أن تعرف مقدار افتقارنا إلى المعاجم فانظر هل في مراجعنا شيء من المعاجم الآتية : —

(١) معجم لغوي تاريخي (٢) معجم اصطلاحي لمفردات العلوم
(٣) معجم لغوي عام (٤) معجم للآداب
(٥) معجم للفلسفة وعلم النفس (٦) معجم الأسماء القديمة
(٧) معجم الأسماء الحديثة : في الجغرافيا والتاريخ
(٨) معجم الأسماء العربية (٩) معجم أسماء طبقات الحيوان
(١٠) معجم أسماء طبقات النبات (١١) معجم المصطلحات الاسلامية

إلى غير ذلك مما يصعب حصره وتحديد الحاجة اليه .

٦٧ - ٨

وإنك إذا تصفحت رسالة في التاريخ القديم مترجمة إلى اللغة العربية عن الفرنسية ، ثم قارنتها برسالة في نفس الموضوع مترجمة إلى العربية عن اللغة الانجليزية أو الالمانية ، لتعذر عليك في كثير من الاحوال التمييز بين الاسم العلم الواحد لشدة ما تنافر الناقلان في طريقة نقله إلى العربية ، حتى لقد تقدم إلى كثيرون من طلاب الآداب يسألون عن حقيقة اسماء مختلفة عرضت في درج رسائل في التاريخ ، وبمقارنتها اتضح لي أنها اسم واحد نقله عدة من المترجمين بصيغ مختلفة في العربية . ولا شك في أن هذه الفوضى الغامرة من شأنها أن تعمى على طلاب العلم وربما كانت سببا في تناقضهم . واذا وقع التناقض للمدين بشيء من آداب اللغات الاوربية بسبب ذلك ، فأحرى بمن يدرسون باللغة العربية خالصة ، أن يكونوا أشد تناقضا وأكثر تطوحا مع الأوهام التي أكاد أجزم بأنها شائعة في أكثر ما يكتبونه ويؤلفونه شيوعا عظيما اذا تعرض أحدهم للكتابة في غير الموضوعات الاسلامية ، وما السبب في هذا إلا احتياجنا إلى معاجم لأسماء الاعلام تجري في تعريب الأسماء القديمة والحديثة على قواعد معينة ، اللهم إلا ما عربه العرب ، وهو قليل ، فانه يبقى كما عربوه .

خيل إلى بعض المشتغلين بحركة الثقافة في مصر ، وتتبعوا أطوارها منذ مائة سنة ، أن ما نقل إلى العربية من فروع المعرفة كاف لأنه يكون جزءاً صالحا من العلم بحقائق الأشياء ، والحقيقة التي أحسها تناقض هذا الخيال ، فقد أتبع النقلة عندنا حتى الآن طريقين : إما التلخيص وإما نقل تف من المذاهب أو قطع متفرقة عن كتاب الأدب المعررفين ، وكلا الأمرين مضر أقصى الضرر بالثقافة الصحيحة ، فان هذه الثقافة لا يمكن أن تتلقى تفا وأقساطا إلا لتكون أدبا ناقصاً أو علماً ناقصا أو فنا ناقصاً ، والمعرفة اذا اعتورها النقص في الأصول التي تقوم عليها ، امتنع عليها أن تكون أداة قويمة لخلق التصورات العامة في العلم والأدب والفلسفة . وخلق التصور العام في العلم والأدب والفلسفة هي الغاية التي يجب أن تنتهي إليها الثقافة العامة ، هي المثل الأعلى الذي ينبغي أن ينشد من العلم ، وهي الهدف الذي يجب أن يرمى اليه التعليم .

إذن يكون ما نقلنا إلى اليوم من الآثار العلمية والأدبية عن المعرفة الجديدة ، وبالحرى عن الثقافة الاوربية ، إنما هو تف وأجزاء ، لها من الفائدة على قدر ما فيها من تعبير صحيح عن مذاهب أصحابها ، وقلما يعبر الجزء عن الكل تعبيراً صادقا قويماً

من جراء هذا كان ذلك الارتجاج العظيم الذي نشهده في مجالي الأدب العصري في مصر والشرق . ذلك بأنه أدب اعتمد على تف من قديمنا وعلى تف من الحديث المنقول عن أوربا ، اعتمد على

درس غير كامل لآدابنا القديمة ، وعلى درس غير كامل للآداب الأوربية ، فكان فى جملته أشبه ببقايا السلع المختلفة إذا اجتمعت لتكون شيئاً جديداً ، وإلك أن تتصور مقدار ما فى ذلك الشيء المكون من تلك البقايا من تنافر ونقص ، إذا أنت صورت لنفسك حيوانا استحدثت صورته من أجزاء مختلفة من البقايا الحفرية جمعت من مختلف أجزاء الكرة الأرضية .

* * *

تلك حال الأدب ، وهذه طريق العلم فى عهدنا الجديد ؛ فمن المسؤول إذن عن هذه الفوضى العظيمة ؟

من الحقائق التى لا نزاع فيها ان ما استحدث حتى الآن من ألوان الأدب والعلم على نقصه ، إنما يرجع إلى جهود بضعة أفراد يمكن عدهم على أصابع اليدين . على أن جهود هؤلاء كانت جهوداً متفرقة موزعة لم تجتمع يوما على غرض رمت اليه ولا نظرت إلى هدف صوبت نحوه ووجهت عملها نحو البلوغ اليه . ولقد عانى أكثر هؤلاء من عنت الدنيا ومن انصراف الناس عن الأدب والعلم ما جعلهم يفرون من ميدان العمل الواحد تلو الآخر ، ليفسحوا الطريق لغيرهم ممن يريدون أن يقامروا على موائد الأدب والعلم إما بمالهم وإما بعافيتهم ، تاركين للأقدار وزن ما جهدوا فيه وعملوا له السنين الطوال . ومن أعجب العجب أن أكثر الذين سقطوا فى ذلك الميدان كانوا ممن حملوا لواء فكرة جديدة أو مذهب حديث حاولوا نشره فى الناس وفيهم حرارة الايمان وحماسة الاقتناع بصلاحيته ، وكان من الواجب أن يؤيدوا ولو إلى الحد الذى يمكنهم من إتمام رسالتهم وتأديتها على وجه يضمن فى المستقبل سلامتها لتكون عدة من العدد التى يقوم من حولها جدل المستقبل . ولكن شيئاً من ذلك لم يعش فى بيئتنا الأدبية على صورة يتخيل معها أشد الناس تفاؤلا بأن لها أثراً ثابتا فى عقل الجماعات العلمية أو الأدبية فى هذه البلاد أو فى غيرها من بقاع الشرق .

فلا نكران إذن فى أن الافراد قد قاموا بأوفر نصيب فى تنشئة تلك الجرثومة التى تبعث فى أدبنا شيئا من مجالى الحياة ، ولا يطالب الافراد مطالب بأكثر مما جهدوا له إلا ويكون إلى الظلم والتجنى أقرب منه إلى الانصاف والعدل .

غير أن أمامنا بعد الأفراد الذين عملوا على تكوين التصور الأدبى الجديد جهات أربع يجب أن نتوجه إليها بالكلام فى ختام هذه الكلمة

فان الأدب والعلم لم ينلهما حتى الآن نصيب من تقدير ظهراء لهم من الجاه والمال ما يكفل لأفراد ممتازين فى المعرفة على اختلاف ألوانها إبراز آثارهم وتسجيلها فى تاريخ العصر الذى يعيشون فيه ولقد كان لظهراء العلم والمعرفة فى القرون الوسطى الأثر الأعظم فى انتقال العلوم إلى أوربا ، كما كان لهم فى العصر العباسى الأثر الأدنى فى نقل العلوم والمعرفة إلى الشرق . وفى مصر ولله الحمد فئة من هؤلاء ولكنهم لا يفكرون فى الأدب أو فى العلم أو فى حماية حرية الفكر إلا كما يفكرون فى أتفه الأشياء التى تمر بهم فى الحياة . وهؤلاء لا يستحقون من كل نصير للأدب أو حليف للعلم إلا أشد اللوم والتقريع . ولقد برهن هؤلاء على أنهم فى هذا العصر ، عصر النور والمعرفة ، أقل إجلالا للعلم وتقديراً للمعرفة والأدب والفن ، من أمراء المماليك رحمهم الله ، وقد ازدهر عهدهم بالأدب واستنار بالعلم ، لأنهم كانوا ولا شك من أشد الأمراء المسلمين رعاية لآثار العقل والفن أدبية كانت أو فنية . لقد كان أمراء المماليك ظهراء لرجال العلم نصراء لرجال الأدب وفى معتقدى أن ذلك أفخم وأروع ما خلفوا لأعقابهم من صالح الاعمال .

بقى بعد ذلك جهات ثلاث : الأولى وزارة المعارف ، والثانية الجامعة المصرية ، والثالثة الأزهر الشريف ، ولا أعلم لماذا لا يكون فى كل من هذه الجهات مؤسسات علمية لترجمة ما يعنيها من المؤلفات قديمة وحديثة ؟ اللهم إلا أننا لم ندرك بعد أننا فى نهاية الأمم المتمدينة من حيث العلم والمعرفة والعناية بنقل العلوم والمذاهب الأدبية والفلسفية إلى لغتنا العربية المبينة

سيظل أدبنا وعلمنا ناقصين من نقل المظان والأمهات إلى العربية ؛ فهل نحن فاعلون ؟

اسماعيل مظهر


## واجب !

ما الذى يمنعك من أن توفر لنفسك القوميون ومصاريف المحل و . . . الخ إذا وجدت أمامك مورد مصرى يستورد لك الصنف من أشهر فبارك ألمانيا ويسلمها لك رأسا بتكاليفها فقط

جرب

قلم حبر الكتابة سفنكس القلم الأنيق ذو الريشة الذهب المضمونة عيار ١٤ مثله فى السوق يباع بثمانين قرشا . أرسل فقط ٤٠ قرشا إلى حسن حسين شارع الطيران نمرة ٣١ مصر الجديدة وللخارج زيادة خمسة قروش يرسل إليكم الطلب فى الحال

مطلوب وكلاء فى الشرق والأقاليم للقلم ولأصناف أخرى مما نستورده من الخارج